٢ ـ المشكلة (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لما فرغتُ من مقالات (المجنون) وأرسلتُ الأخيرة منها، قلتُ في نفسي هذا الآخِرُ هو الآخر من المجنون وجنونه، ومن الفكر في تخليطه ونوادره؛ غير أنه عاد إليَّ أخلاطاً وأضغاثاً فكأني رأيته في النوم يقول لي: اكتب مقالا في السياسة. قلت: مالي وللسياسة، وأنا «موظف» في الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاق الموظفين لما عرفوا من نقدٍ أو غميزةٍ ليكتُمُنَّه ولا يُبَيِّنونه. فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلح عذرا، والمخرجُ سهلٌ والتدبير يسيرٌ والحلُّ ممكن. قلت: فما هو؟

قال: اكتب ما شئت في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك في آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعي؛ غير موظف بالحكومة».....

فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقَّدة، لا يكون الحل إلا عقدةً جديدةً يتم بها اليأس ويتعذَّر الامكان، وهي بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذي يرى الصائد فيُغمِّض عينه ويلوي عنقه ويخبأ رأسه في جناحه ظناً عند نفسه أنه إذا لم ير الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه اختفى؛ وما عمله ذاك إلا كقوله للصياد: إني غير موجود هنا... على قياس «غير موظف»

***

وقد كنت استفتيتُ القراء في (المشكلة) وكيف يتقي صاحبُها على نفسه وكيف تصنع صاحبتُها؛ فتلقيتُ كتباً كثيرة أهدتْ إليَّ عقولا مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقى إليَّ منها — كتابُ «نابغة» كنابغة القرن العشرين، بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر)؛ وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبت وكما تُقرأ؛ فان نشر هذا النص كما هو، يكونُ أيضاً نصاً على ذلك العقل كيف هو....

قال: «إن هذا الكون تعبت فيه آراء المصلحين، وكتب الأنبياء زهاء قرون عديدة، وداعماً نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الانسان. ولقد تفنن المشرعون في أسماء العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الروح؟

ورأيي لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، ما دام قلبه اسطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأي داع من دواع الانفصال. (كذا)

وهذا ليس مجرد رأي مجرب، وإنما هو رأي أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن، وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار اليه في مجلة (الرسالة)، وهذا الرأي سيعمل به، وصاحب هذا الرأي سيخلد في الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبني الانسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال.

إن الانسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى في ميدان الجهاد» (المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة غير «موظف»... فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فاذا هو غير متزوج، وإذا هو يتقلب فيما شاء؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم...

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة «أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن» إلى أن في الكلام إشارةً من قوة خفية في الغيب، فقرأناه على وحي هذه الاشارة وهديها فاذا ترجمةُ لغة الغيب فيه: «ويحك يا صاحب المشكلة، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالآخرة فهذا هو الرأي. كن حيواناً تنتصرُ فيه الطبيعة والسلام

***

(١) انظر المقال الأول في العدد ١٢٣ من الرسالة. والمشكلة هي قصة عاشق أكره على الزواج من امرأة وهو يحب أخرى فكيف يصنع

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب ألقى إلى ؛ أما العجيبة الثانية فان آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها . وهو كتاب آية فى الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس فى أسرارها يَمُور مَوْر الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يحجب جمالاً ليظهر منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرض بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصوُّر ، ويأتى بكلام يقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءة غيرها . ولفظها سهلٌ سهل ، قريبٌ قريب ، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها ، ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطره وأحزانه مُسترسِلٌ إلى الايمان بما كُتب عليه استرساله إلى الايمان بما كتب له ، فما به غرور ولا كبرياء ولاحقد ولا غضب ولا يُكرِّه ما هو فيه

ومن نكد الدنيا أن مثل هـذا القلب لا يُخلَق بفضائله إلا ليُعاقَب على فضائله ؛ فغِلظةُ الناس عقابٌ لرقته ، وغدرهم نكاية لوفائه ، وتهوُّرهم ردٌّ على أناته ، وحمقُهم تكدير لسكونه ، وكذبهم تكذيبٌ للصدق فيه

وما أرى هذا القلب مأخوذا بحب ذلك الشاب ولا مستهاماً به لذاته ، وإنما هو يتعلَّق صُوراً عقليةً جميلةً كان من عجائب الاتفاق أن عرضت له فى هذا الشاب أول ما عرضت على مقدار ما ؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وُجدت العشرة ، وزوال العشرة إذا وُجدت المائة ، وزوال المائة إذا وُجد الألف

وبعد هذا كله فصاحبة المشكلة فى كتابها كأنما تكتب فى نقد الحكومة على طريقة جمل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » ... وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدَّر بين شاطئيه مدَّعياً أنه هارب من الشاطئين مع أنه بينهما يجرى . تحبُّ صاحبها وتلقاه ؛ ثم هى عند نفسها غير جانية عليه ولا على زوجته ... فليت شعرى عنها ماعسى أن تكون الجناية بعد زواج الرجل غير هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنا نقدر على محاباتك فى ألا نقول إنك ظالم ؛ هل تقدر أنت على ألا تعلم أنك ظالم ؟

ورأيها فى (المشكلة) أن ليس من أحد يستطيع حلَّها إلا صاحبها ، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين : فاما أن تكون ضحيةُ أبيها وأبيه (تعنى زوجته) ضحيته هو أيضاً ويستهدفَ لما يناله من أهله وأهلها فيكون البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابد من نفسه ومنهم ما إنْ أقلهُ ليذهبُ براحته وينغّص عليه الحبُّ والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحى بقلبه وعقله وبى ... .

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لا يستطيع حل هذه المشكلة إلا صاحبها ، وأن صاحبها غير مستطيع حلها إلا بجناية يذهب فيها نعيمه ، أو بجنون يذهب فيه عقله . فان حلها بعد ذلك فهو أحد اثنين : إما أحمق أو مجنون ما منهما بد . . .

ولسان الغيب ناطق فى كلامها بأن أحسن حل للمشكلة هو أن تبقى بلا حل ، فان بعض الشر أهون من بعض

* * *

والعجيبة الثالثة أن « نابغة القرن العشرين » جاء زائراً بعد أن قرأ مقالات (المجنون) فرأى بين يدىّ هذه الكتبَ التى تلقيتها وأنا أعرضها وأنظر فيها لأتخير منها ، فسأل يخبّره الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنون لو امتحنوه فى الجغرافيا وقالوا له ما هى أشهر صناعة فى باريس لأجابهم : أشهر ما تعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى . . .

قلت : فكيف يرتد هذا المجنون عاقلاً ؟ وما علاجه عندك ؟

قال : وَجِّهْ فى طلب ا . ش ليجىء ، فلما جاء قال له اكتب : جلس « نابغة القرن العشرين » مجلسَه للافتاء فى حل المشكلة فأفتى مرتجلاً :

إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان فى أن مشكلة الحب التى يعسر حلُّها ويتعذَّر مَجازُ العقل فيها ، ليست هى مشكلة هذا العاشق أكرهوه على الزواج بامرأة يحملها القلب أولا يحملها ، وإنما تلك هى مشكلة أمبراطور الحبشة يريدون إرغامه أن يتزوج إيطاليا ، ويذهبون بزفوتها إليه بالدبابات والرشاشات والغازات السامة

ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذى يعمل عمل العقل ، إذن لكانت مجارى عقله مطردة فى رأسه فانحلّت مشكلتُه بأسباب تأتى من ذات نفسها أو ذات نفسه ، غير أن فى رأسه عقلَ بطنه لا عقل الرأس ، كذلك الشره البخيل

الذى طبخ قِدْراً وقعد هو وامرأته يأكلان . فقال ما أطيبَ هذه القِدْرَ لولا الرحام . . . قالت امرأته : أى زحام ههنا ؟ إنما أنا وأنت . قال : كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط . . .

فعقلُ النهم فى رأس هذا كعقل الشهوة فى رأس ذاك ؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعمل أعمال العقول السليمة ؛ ويريد أحدها أن تبطل الزوجة من أجل رطل من اللحم ، ويريد الآخر مثل ذلك فى رطل من الحب . . .

وإذا فسد العقل هذا الفساد ابتلى صاحبَه بالمشاكل الصبيانية المضحكة لا تكون من شىء كبير ، ولا يكون منها شىء كبير ؛ وهى عند صاحبها لو وُزنت كانت قناطير من التعقيد ؛ ولو رِكيتْ بلغت أرادب من الحيرة ؛ ولو قيست امتدت إلى فراسخ من الغموض

هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، اما أن تكونا جميعاً امرأتين فالمعنى واحد فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين فالمعنى كذلك واحد فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هِرْدة وههنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين فى اللغة ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسىّ ولا البهائم . . .)

فان زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب ، وإن زعم أنها الهردة فهو أكذب . والمشكلة هنا مشكلة كل المجانين ، ففى مخه موضع أفرط عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ فى الرأى ، وابتلاه مع هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة ، وجعل زوجته المسكينة هى معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا عيب فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبط فيها المجنون مدةَ جنونه فتكون مَجلَى هَذَيانه ومعرضَ حماقاته ، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون

فان كانت هذه الحقيقة مسئلةً حسابيةً استمر المجنون مدة جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثة عشر ، ولا يصدق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسئلةً علميةً قضى المجنون أيامه يُشعِل التراب ليجعله باروداً ينفجر ويتفرقع ، ولا يدخل فى عقله أبداً أن هذا تراب منطوٍ بالطبيعة ؛ وإن كانت مسئلةً قلبية استمر المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هردة ولا يشعر أبداً أنها امرأة

فان صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يُربط فى المارستان ثم يجىء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هردة ؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة ويعرفها امرأته فيقال له حينئذ : إن كنت رجلاً فتخلق بأخلاق الرجال

أما إن كان الرجل عاقلاً مميزاً صحيح التفكير ولكنه مريض مرض الحب ، فلا يرى (النابغة) أشفى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطبَّ بهذه الأشفية واحداً بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها :

الدواء الأول : أن يجمع فكره قبل نومه فيحصره فى زوجته ثم لا يزال يقول زوجتى ، زوجتى ، حتى ينام . فان لم يذهب ما به فى أيام قليلة فالدواء الثانى

الدواء الثانى : أن يتجرع شربة من زيت الخروع كل أسبوع . . . ويتوهم كل مرة أنه يتجرعها من يد حبيبته ، فان لم يشفه هذا فالدواء الثالث

الدواء الثالث : أن يذهب فيبيت ليلة فى المقابر ، ثم ينظر نظره فى أى المرأتين يريد أن يلقى الله بها ويرضاها عنه ويثوابه فيها ؛ وأيتهما هى موضع ذلك عند الله تعالى ، فان لم يُبصر رشده بعد هذا فالدواء الرابع .

الدواء الرابع : أن يخرج فى (مظاهرة) . . . فاذا فقئت له عين أو كسرت له يد أو رجل ثم لم تحلّ حبيبتُه المشكلة بنفسها . . . فالدواء الخامس

الدواء الخامس : أن يصنع صنيع المبتلى بالحشيش والكوكايين ، فيذهب فيُسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترف العقلى ، ثم ليعرف من أعمال السجن جدَّ الحياة وهزلها ، فان لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس

الدواء السادس بتّاته كلما تحرك دمُه وشاعت فيه حرارةُ الحب ، لا يذهب إلى من يحبها ولا يتوخى ناحيتها ، بل يذهب من فوره إلى حجّام يحجمه . . . ليطفئ عنه الدم باخراج الدم ؛ وهذه هى الطريقة التى يصلح بها مجانين العشاق ، ولو تبدلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحر الحب

قال « نابغة القرن العشرين » : فان بطلت هذه الأشفيةُ الستة وبقى الرجلُ جَموحاً لا يُردُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع